

أثر الموسيقى في حياتنا

لقد ظلت الموسيقى منذ قرون، لغة تخاطب ووسيلة اتصال ومصدر تأثير على قدر كبير من الأهمية في عالم الانسان والحيوان... فهي كلغة تشبع رغباتنا في التعبير عن خلجات نفوسنا، ونسميها فنا (فن الموسيقى)، وهي كوسيلة اتصال بين الناس والتعريف بهم تعكس نمط حياة وتفكير الجماعة، وتصبح ذات رسالة عالمية في تلاقح ثقافات الشعوب من خلال الدراسات الفولكلورية والمهرجانات الموسيقية، ونعتبرها علما (الموسوعة الموسيقية) وهي كمصدر تأثير تساعدنا على الاسترخاء، وخفض التوتر العصبي والجهد الذهني لدى الانسان السليم، وعلى التنبيه الحسي في حالة المرض وضعف الاستجابة ونطلق عليه ترويحاً (العلاج بالموسيقى). وقد قال أحد الشعراء :

أصخرة أنا مالي لا تحركني... هذي المدام ولا هذي الأغاريد

مجرد تأكيد لأثر الموسيقى في تحريك حواس الأنسان... واذا ادركنا ان الحركة تحت تأثير (المدام) سلبية تقود في الاتجاه المضاد للنشوة الفعالة المؤثرة المستمرة، وذلك بالتنبيه المؤقت حتى يسقط الفرد في درك حالة الشلل والخمول. فإن الحركة تحت تأثير (الأغاريد) الموسيقى تقود في الاتجاه الإيجابي كظاهرة صحية وعلمية نفسية فيزيولوجية، تحدث حالة انخفاض درجة التوتر العصبي نتيجة المؤثرات المنعومة المنتظمة.

خلفية علمية

يعتقد الكثيرون ان الحديث عن أثر الموسيقى في حياة الناس، نوع من الترف الذهني والبطالة الفكرية، وحتى تتسم هذه الملاحظات العابرة بدقة العلم الموضوعية، لا بد من ذكر نظريات تثبت هذه الحقيقة... فقد اثبت العالم النفسي المعروف واستاذ فرويد (شاروكوت) إمكانية علاج اعراض جسمية نتيجة حالة نفسية، كالشلل والبكم الهستيرى، عن طريق الايحاء وإستعمال الموسيقى كإحدى وسائل احداث حالة الايحاء بالترويح النفسي او التفرغ العقلي او حالات التنويم المغناطيسي بداية بالاسترخاء... والغفوة والنوم وانخفاض الوعي وضعف السيطرة على النفس... كما اثبت العالم الروسي بافلوف، ان الفارق بين النوم الطبيعي والتنويم، يكمن في القدرة على الاتصال بالعقل الباطني بالايحاء... وقد لاحظ ان تنويم الطفل اثر الاهتزازات الرتيبة المنتظمة الخاصة والاصوات المنغومة التي تصدر من الأم، تحدث هذا الأثر من الاسترخاء والنوم بتكوين (عادة)، نتيجة مجموعة انعكاسات شرطية مكتسبة وهذه حقيقة يتعامل معها الأب والأم كل يوم.

اذا انتقلنا الى عالم الكبار، نلاحظ ان الذين ينامون على صوت الموسيقى او المذياع، يستيقظون متوترين اذا توقف هذا المثير... خاصة تستغلها إدارات الفنادق الفاخرة، في تزويد غرف النوم بموسيقى وجدانية صرفة، تبعث على الرغبة في الاسترخاء والنوم نتيجة الإيقاعات المتواترة الهادئة، كما نلاحظ ان بعض الطلاب يستذكرون دروسهم تحت تأثير المذياع والأغاني، وتقل دافعيتهم ويشعرون بالملل والضيق عندما يتوقف المثير، وان بعضهم يحفظ الأغاني لعدة سنوات وينسى الدرس بعد بضع ساعات. ونلاحظ في حالات الهستيريا الجماعية في اغاني (الديسكو) الصاخبة وحفلات الخنافس في اوربا، قد تصل مرحلة قابلية الايحاء درجة فقدان السيطرة والعنف وحالات الإغماء...

وتمتد الظاهرة منذ عهد زرياب والموصلى والموشحات الاندلسية

وسيمفونيات بتهوفن، الى حلقات الذكر والتواشيع الدينية التي تحدث حالة من الرهبة والخشوع بخلفية المؤثرات الصوتية والكلمات المنغومة في مسحة الانفعال المؤدي الى حالة الانجذاب اثر صوت (النقشبندي) والابتهالات الدينية المشحونة بالتنعيم المؤثر المخاطب للقلب مباشرة.

ويبدو هذا اكثر وضوحا في تأثير القرآن المرتل بصوت (عبد الباسط عبد الصمد)، حيث تلتصق الآيات المنغومة بالوجدان مباشرة وهي اعلى مراحل التنبيه الحسي في قوة التأثير المستمر في الذاكرة... ونلاحظ الظاهرة في الصراع بين الشعر العمودي والشعر الحر يبدو اكثر حدة في محور الاهتمام بالموسيقى الداخلية للشعر... فالموسيقى الشعرية تجعلنا نحفظ مضامين للشعر العمودي أكثر من الشعر المنثور. وهذه بعض أسباب خلوده في ذاكرتنا.

الموسيقى والشخصية

نلاحظ ان هناك تصنيفا محدودا وانطباعيا عن علاقة نوعية الموسيقى بشخصية الفرد... فالذين يميلون الى الموسيقى الكلاسيكية، يكونون أكثر ميلا للاستبطان والتأمل والتروي في التفكير، والتحكم في الأنفعال والقدرة على التدقيق. والذين يميلون الى الموسيقى الدرامية عاطفيون وانطباعيون يتميزون بسرعة الاستجابة لمثيرات البيئة، أما عشاق التراجيديا فيكون وينفعلون مع الاحداث بصورة تلقائية كروية منظر في تمثيلية أو مشهد في مسرحية، بينما نجد الذين يميلون الى الموسيقى النحاسية الصاخبة، يتميزون بالاثارة وحدة الانفعال.

العلاج بالموسيقى

من المعروف ان من وسائل الترويح النفسي، الاستماع الى الموسيقى في حالات العافية والمرض ومن مؤثرات العلاج النفسي، استعمال الموسيقى في بعض حالات المرض العضوي والنفسي... في الحالة الأولى ترفع منسوب الروح المعنوية وفي الثانية تتغلغل في أعماق النفس من خلال التأثيرات التي

ذكرناها، مؤكدة بتجارب (مخنر وقيبر وهلموهوتز)، في دراسة الطبيعة النوعية للدفعة العصبية الحسية، وذلك بناء على نوعية المرض... وقابلية المريض... وشخصية الطبيب الذي يستعمل الاسترخاء في نزع افكار وخيالات مريضة وغرس افكار اخرى سوية، قادرة على مخاطبة العقل الباطني نتيجةالفقدان النسبي للذاكرة، ونسيان الأحداث المسببة للقلق، وإمكانية استدعاء ذكريات سارة من الماضي، وتوجيه الرغبات اللاشعورية توجيهها سليما، وهذا أساس بعض الاضطرابات النفسية... وقد وضع من خلال التغيرات الادراكية إمكانية رؤية وتخيل أشياء غير موجودة (تحضير الأرواح) ومخاطبة أشخاص غير موجودين في (طقوس الزار)، وفقدان سيطرة المراكز العليا، كالمشي في الجمر وأكل النار، عند بعض المجتمعات...

وفي مجال الطب النفسي، فأكثر الحالات استجابة، هي حالات الانقباض والتوتر العصبي والاكتئاب النفسي والهستيريا. ومن المثير حقا ان بعض حالات انفصام الشخصية، وهي أخطر الأمراض العقلية الناجمة عن اضطرابات كيميائية وبيولوجية، يتأثر المريض بالموسيقى في نوع الاستجابة ودرجة المشاركة الوجدانية، مما يؤكد الحقيقة العلمية، عن أثر الموسيقى الفزيوكيميائية، بإحداث تفاعلات في جزع المخ تنشيط المراكز المعطلة.

والحق يقال، أن أثر الموسيقى في حياتنا، تمتد من أخصم القدم الى شعر الرأس... من دهاليز الحزن الى أضواء الفرحة... من ألم التوتر الى لذة الاسترخاء، وفوق كل ذي علم عليم.